ذاكرة النكبة في الملهاة الفلسطينية لإبراهيم نصر الله

أسماء مساعدية

– قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار–عنابة، Khel.lotfi@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2017/12/20 **تاريخ المراجعة:** 2018/01/07 **تاريخ القبول:** 2019/03/05

ملخص

من يتابع مسار الرواية الفلسطينية يلمس واقعيتها بالاستناد إلى ذاكرتي الزمان والمكان، وهذه الواقعية في الرواية سجلت تاريخ فلسطين منذ وعد بلفور وصولاً إلى الواقع الراهن، يعد "إبراهيم نصر الله" من أبرز الكتاب الذين كتبوا عن مراحل النضال الفلسطيني في مشروعه "الملهاة الفلسطينية" مصوراً اللجوء والتشرد، والمقاومة، واستطاع أن يستخدم التاريخ عبر سطوره دون أن يعلن عن حضوره المباشر بشكله الفج، في روايته "طفل الممحاة"التي دارت أحداثها في بداية القرن العشرين حتى نكبة 1948، كما عالج البؤس والجوع والتشرد في روايته " طيور الحذر سنحاول في هذا المقال أن نرصد النكبة وتجلياتها في الملهاة الفلسطينية، ونكتشف الأسباب التي دفعت نصر الله إلى الارتحال بعيدا في الذاكرة، بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفاتيح: نكبة، ملهاة فلسطينية، تاريخ، ذاكرة.

Memory of Nakba in the Palestinian Comedy of Ibrahim Nasrallah

Abstract

Those who follow the path of the Palestinian novel touch the reality of honesty and sincerity shown on the basis of the memory of time and place. This realism in the novel recorded the history of Palestine since the Balfour Declaration to the current reality. "Ibrahim Nasrallah"is one of the most prominent writers who wrote about the stages of the Palestinian struggle in his project "Palestinian comedy". In this article, we will try to trace the Nakba and its manifestations in the Palestinian comedy, and discover the reasons that prompted Nasrallah to travel far in memory, by adopting the descriptive analytical method.

Keywords: Nakba, Palestinian comedy, history, memory.

Mémoire de Nakba dans la comédie palestinienne d'Ibrahim Nasrallah

Résumé

Ceux qui suivent le parcours du roman palestinien peuvent ressentir son réalisme par rapport aux mémoires synchronique et diachronique. Ce réalisme dans le roman palestinien a témoigné l'histoire de la Palestine de la Déclaration ~~de~~ Balfour à la réalité actuelle. «Ibrahim Nasrallah» est l'un des écrivains les plus éminents qui a bien décrit les étapes de la lutte palestinienne dans son projet «la comédie palestinienne». Dans cet article, nous tenterons de suivre la Nakba et ses manifestations dans la comédie palestinienne, et de découvrir les raisons qui ont poussé Nasrallah à voyager loin dans la mémoire, en adoptant l'approche analytique descriptive.

Mots-clés: Nakba, comédie palestinienne, histoire, mémoire.

المؤلف المرسل: أسماء مساعدية، Khel.lotfi@gmail.com

توطئة:

تعد علاقة الرواية بالتاريخ علاقة قديمة وممتدة الجذور، فلوكاتش أرجع نشأة الرواية التاريخية إلى مطلع القرن 19، أين استوعبت الرواية بنية التاريخ بحيث أصبح هذا الأخير جزءا من نسيجها الداخلي الخاص، وكان ذلك مع ظهور رواية *وولتر سكوت*ويفرلي*عام1814[1]، تختلف الرواية عن التاريخ في الوظيفة والقصد، إذ أن التاريخ خطاب نفعي يسعى للكشف عن القوانين المتحكمة في تتابع الأحداث، في حين أن الرواية على وجه الخصوص خطاب جمالي تقدم فيه الوظيفة الفنية على الوظيفة المرجعية[2]، لكن هذا لا ينفي أنهما يشتركان في الطابع السردي الذي يجعل منهما خطابين يعملان بصورة موحدة لتأسيس خطاب لغوي غايته تمثيل واقع معين وتشييد فكرة ما«فالواقع ليس مجرد فيض أو تجميع آلي للشظايا والشذارات، بل هو يمتلك نظاما، يبرزه الروائي بشكل اشتدادي، فالكاتب لا يفرض على العالم نظاما مجردا، بل يقدم للقارئ صورة عن ثراء الحياة وتعقيدها»[3]، وهنا تبرز قدرة الروائي على الجمع بين المتناقضات لتشييد عالم خيالي يرتبط في وجوده بمرجعية تاريخية، أما إذا عدنا إلى الرواية العربية نجد أن استثمارها للتاريخ، في البدايات كان بسيطا يفتقر للخيال، ويحاكي بشكل مباشر شخصيات عربية مؤثرة مثلما كان عليه الحال في روايات "جورجي زيدان" حيث كانت الشخصية التاريخية تظهر في تلك الأعمال«سطحية وذات بعد واحد وبالإضافة إلى الفردية التي تطبع الصبغة السردية، والرؤية السردية في الرواية التاريخية»[4]، وفي عصرنا هذا أصبح التاريخ منظومة معرفية لها حضورها وتميزها الخاص في الخطاب الروائي، فكانت الرواية العربية الحديثة ترجع للماضي لتبحث في طياته عن أسباب تأزم الحاضر، فحملت هذه العودة الكثير من العتاب والمساءلة للتاريخ الذي يتحمل بدوره المسؤولية في انتكاسات الأمة العربية، فقرأت بذلك الرواية الحاضر بعيون الماضي«ومع ازدياد الوعي بالحاضر، يزداد الاهتمام بالتاريخ، بوصفه خلفية الحاضر أو تاريخ الحاضر، وتسهم الرواية بوصفها إحدى أدوات تصوير التاريخ الأكثر تفصيلا وصدقا، في استجلاء ما حدث في التاريخ»[5]، لأن ما نعيشه من أحداث ومواقف اليوم هو نتيجة لما حدث بالأمس، وهناك أعمال روائية أخرى استثمرت الماضي لتحيي شخصيات عظيمة، كان لها بالغ الأثر على الأمة حينها ولم يعد لها أثر في عصرنا هذا لأنها«أدركت بأن ضمان الشعور بالاستمرار، لا يمكن أن يتم إلا باللجوء إلى الماضي، وعرفت بأن الارتكاز على الماضي كأساس متين، هو أمر مهم للتخلص من خطر الحاضر»[6]، وإذا تعلق الأمر بدولة كفلسطين، فإن التاريخ يصبح ضرورة لا خيارا أمام الروائيين وغيرهم من مثقفي الوطن وكتابه ومؤرخيه، لأنه مستهدف بشكل مباشر من طرف عدو صهيوني، يسعى إلى محوه وإزالته نهائيا وإحلال تاريخ مغاير اختلقه، ليبرر فعلته المتمثلة في اغتصاب الأرض، وتهجير الشعب، وتشتيته في أصقاع العالم وليفرض سطوته بقوة على الحاضر بمزاعمه الواهية، لهذا اتجه الكثير من الروائيين الفلسطينيين نحو الماضي ينهلون منه بشغف، ويستثمرون روحه في تشكيل عوالمهم الروائية، فأبدعوا الكثير من الأعمال التي تمثلت روح التاريخ، وصاغت رموزه وأحداثه، لتشكيل خطابات سردية بليغة ومؤثرة «باعتبار التاريخ منبعا غنيا بالأفكار والحوادث والشخوص»[7]، فلماذا رجع "إبراهيم نصر الله" بقوة إلى التاريخ؟ وكيف استثمر ذاكرة النكبة في بناء ملهاته؟ وماهي تجليات النكبة في الملهاة الفلسطينية؟

1- ذاكرة النكبة في الملهاة الفلسطينية:

يعد *إبراهيم نصر الله* من أبرز الروائيين الفلسطينيين الذين اشتغلوا بكثافة على التاريخ لاسيما في الملهاة الفلسطينية التي غطت ما يقارب 250 سنة من التاريخ الفلسطيني، منذ نهايات القرن السابع عشر حتى زمن ما بعد الانتفاضة الفلسطينية الثانية في أربع روايات هي:

*طيور الحذر *صدرت عام1996.

*طفل الممحاة*صدرت عام2000.

زمن الخيول البيضاء صدرت عام2007.

*قناديل ملك الجليل*صدرت عام2011.

وحسب الترتيب الزمني لتاريخ فلسطين فإن رواية "قناديل ملك الجليل" كحدث زمني تأتي على رأس روايات الملهاة الفلسطينية، لأنها ترتحل بعيدا في الماضي الفلسطيني حيث تبدأ من نهايات القرن السابع عشر، وتغطي القرن الثامن عشر بأكمله تقريباً (1689–1775)، تأتي بعدها رواية "زمن الخيول البيضاء" التي تبدأ أحداثها من الربع الأخير من القرن 19، وتمتد إلى عام النكبة 1948، ثم رواية "طفل الممحاة" التي تدور أحداثها في بدايات القرن العشرين، حيث إنها ترصد تجليات النكبة في مخيمات اللاجئين بالأردن، وتتبع سنوات الشتات الفلسطيني منذ 1948الى غاية نكسة1967، وأخيرا "رواية طيور الحذر" التي تنقل نتائج النكبة على الشعب الفلسطيني، وتتحدث عن معاناته بعد أن هجّر من بلده، وتدور أحداث هذه الرواية في إحدى مخيمات الشتات.

رجع "إبراهيم نصر الله" إلى التاريخ بقوة، فاستعاد الأحداث المفصلية في القضية الفلسطينية، وحاور القضايا الحساسة والمهمة بطريقة فنية امتزجت فيها جماليات الفن بمرارة الواقع، لأن التاريخ الفلسطيني مستهدف بشكل مباشر من طرف العدو الصهيوني، الذي يسعى منذ اغتصابه فلسطين كسب أحقية الاستيلاء على الأرض، بشرعية الذاكرة فكان بذلك «الاعتداء على التاريخ متقنا ومصادقا عليه، وبالتالي الاعتداء على الذاكرة الشعبية السائدة لفلسطين، وكيف لفت بناء تاريخ اليهود من جديد الأنظار طوال سنوات ليتلائم مع غايات الصهيونية بوصفها حركة سياسية»[8]، لهذا حملت العودة للتاريخ في الملهاة الفلسطينية إرادة قوية لإنقاذ الذاكرة المهددة بالضياع، ومقاومة النسيان الذي يلاحق الفرد الفلسطيني ويفصله عن أرضه وهويته ووجوده، فالكتابة كما نعلم حماية للذاكرة إذ إنها وحدها القادرة على«توليد الأحاسيس المتنوعة وتحريك المدارك المختلفة ومخاطبة الذاكرة وحملها على التساؤل وتحفيزها لرؤية ما لا يرى وإيقاظ ما أماتته القساوة وأغرقته الظلمة وغيبه الهلاك، حتى غدت المظالم تخفي فاعليها»[9]، ولعل ما حلَّ بالوضع الفلسطيني من انقسام سياسي بين الإخوة الفرقاء، في ظل عملية السلام الوهمية مع العدو الصهيوني، خلق وضعا معقدا وصعبا على جميع الأصعدة، وأدَّى إلى تراجع روح المقاومة والاحتفاء بالذاكرة خصوصا بعد «أن سقطت العديد من المبادئ التي كانت تحكم المشهد الفلسطيني وتمثل مرجعيته التي لا غنى عنها»[10]، من هنا كانت العودة إلى الماضي ضرورة لا خيارا لإنقاذ الذاكرة واستعادة العلاقة بالجذور لأن «صمود الذاكرة الفلسطينية الشفوية الحية، وبما هي ذاكرة لحقيقة تاريخية، تشكل عاملا فعليا في الصراع العربي الإسرائيلي لا ينهض على مستوى القتال، أو الحروب بل هو معادل حياة للإنسان الفلسطيني وقضيته »[11]، فالذاكرة من أقوى الأسلحة التي يمكن للشعوب المضطهدة والمقهورة أن تشهرها في وجه أعدائها، لأنها تحفظ كل عناصر القوة ومقومات البقاء للشعب المظلوم، فأن تتذكر يعني أنك موجود ولديك القدرة على المقاومة والحياة ضد كل محاولات الطمس والتزييف التي تقودها إسرائيل بشكل ممنهج لهذا يجب أن نستعيد

ذاكرتنا حتى «لا نترك التاريخ في عهدة كتاب السلاطين ومزوري الحقيقة والورثة غير الشرعيين للدماء التي تسيل من أجسادنا المثخنة بالطعنات»[12]، فالاحتلال الصهيوني يسعى إلى تهجير الوطن من الوجدان بعد أن هجر أهله وشتتهم، والى اغتصاب التاريخ عنوة بعد أن «اغتصب الأرض من خلال نفي الوجود الفلسطيني كليا أو جزئيا وإحلال كيان يهودي مكانه»[13]، وهكذا كان الارتحال عبر ثنايا الذاكرة، لمقاومة أساليب اغتيال التاريخ المنتهجة من طرف العدو الصهيوني.

1-1- تجليات النكـــــبة:

النكبة لغة: تذهب اللغة العربية إلى أن النَّكْبَةَ هي «الْمُصِيبَةُ مِنْ مَصَائِبِ الدَهْرِ وإِحْدَى نَكَبَاتِهِ وَجَمْعُهُ نُكُوبٌ ونَكَبَهُ الدَهْرُ يَنْكُبُهُ نَكْبًا وَنَكَبَاً :بَلَغَ مِنْهُ وَأَصَابَهُ بِنَكْبَةٍ»[14]، تحيلنا النكبة لغة إلى كل معاني الحزن والبلاء التي تصيب فردا أو جماعة في أي زمن من الأزمان، والنكبة التي نقصدها نحن في هذا المقام هي نكبة فلسطين1948، وما شهدته هذه الفترة من عمليات تهجير قسرية ونفي واقتلاع طالت الشعب الفلسطيني الأعزل، على يد العصابات الصهيونية المدعمة بالقوى العالمية لأن «طرد العرب من ديارهم وإرغامهم على الهجرة واستعمال جميع الوسائل الهمجية المربكة والمفزعة المدمرة لإخراجهم وإحلال اليهود محلهم، كان ذلك متفقا عليه بين الصهيونية العالمية وساسة بريطانيا»[15]، فالنكبة هي مجموع المجازر التي ارتكبها الصهاينة بحق الإنسان في فلسطين.

تصدرت النكبة الأعمال الأدبية الفلسطينية، فقد عكف الأدب الفلسطيني على تناول أحداثها بطريقة فنية مؤثرة لأنها غدت «قضية اجتماعية تاريخية نضالية تحررية وطنية قومية وإنسانية»[16] جسدت هذه الأعمال في معظمها صدمة الفقدان والضياع التي عاشها الفلسطيني المهجر بقوة من أرضه وقريته، ولا ريب أن الاستثمار المكثف لهذا الحدث المأساوي في الأدب أحيا، في نفوس أبناء الأرض الشوق، وحلم الرجوع إلى أحضان الوطن السليب يوما ما فأصبح «الأدب المقاوم بكل أجناسه، وبخاصة الشعر والقصة والرواية بنية فنية جميلة ذات محتوى ثقافي اجتماعي وتاريخي، أي أنه بنية تتناول بفاعلية الحدث التاريخي السياسي لشعب اقتلع من أرضه، وعوقب على فعل لم يرتكبه»[17]، وقد رصدت الملهاة الفلسطينية الواقع الفلسطيني قبل النكبة، كما رسمت بعضا من ألوان المعاناة، وصورت العذاب الذي اكتوى اللاجئون الفلسطينيون المشردون بناره، فأحيت ذكراهم بيننا من خلال روايتي "طفل الممحاة" و"طيور الحذر".

1-2- ما قبل النكبـــــة:

لامست رواية "طفل الممحاة" الوضع الفلسطيني، والدول المجاورة قبل النكبة من خلال شخصية العريف فؤاد بطل الرواية، وقد سيطرت رؤيا ضبابية مبهمة على مجتمع الرواية في تلك الحقبة الزمنية، التي شكّلت منعطفاً أساسيا في تاريخ فلسطين والعالم العربي، فالسلطة الأردنية ترفض الذهاب إلى فلسطين في البداية، ثم تضطر إلى ذلك تحت ضغط الشعوب الغاضبة في الشوارع «في الخارج مظاهرات تطالب بإنقاذ ذلك البلد، واعتقالات خطابات حامية واستغاثات»[18] وتتعرض هذه الشعوب التي تطالب بالذهاب إلى فلسطين وإنقاذ القدس، للاعتقال والضرب والسجن، في الوقت الذي كان فيه سيد البلاد يعيش في عالمه الخاص بعيدا كل البعد عن نبض الشارع «الهتافات بدأت تقترب وتقترب من أسوار سيد البلاد ....لأيام رحت تحاول رؤية تأثير تلك الهتافات على ملامح سيد البلاد لكنك لم تظفر بمعنى واحد يشير إلى ما يحدث فيه، يتصرف كالمعتاد كما لو أن الأصوات تتدفق على قصر آخر لا يعنيه»[19] يتجلى هنا بوضوح القطيعة بين الحاكم والمحكوم في الدول العربية، لأن رغبة الشعوب

دائما تخالف طموحات الحكام الذين يعيشون في قصورهم بعيدين كل البعد عما يحدث في الشوارع من غليان وقد «شهد العالم نماذج من الأنظمة الاستبدادية طيلة العصور القديمة والوسيطة والمعاصرة تشابهت أساليبها وطرق استعبادها للشعوب ووسائل التحكم بالرقاب»[20]، وكلما ازدادت المظاهرات حدة ازداد قمع السلطة، وتعنتها في إسكات كل الأصوات المناهضة بالقوة، من خلال رجال المخابرات الذين يقتفون آثار المتظاهرين، ويقومون باعتقالهم وتعذيبهم حتى «امتلأت السجون بطريقة لفتت انتباه الناس أكثر، وأشعلت غضبهم بصورة أشد»[21]، ومن المفارقات العجيبة التي كشفتها الرواية أن الجيش العربي الذي سينقذ فلسطين، قائده بريطاني رفض الذهاب إلى فلسطين لأنه ينتمي إلى بلد قام بعملية توطين اليهود، وعمل كل ما في وسعه لزرعهم في جسد الأمة العربية «كيف يمكن أن أذهب لمحاربة أناس أعطاهم بلدي وعدا بإقامة وطن قومي لهم ويعمل على تسليحهم»[22] فكيف لجيش يقوده بريطاني أن يحرر فلسطين؟ حاول نصر الله أن يحيط بالتفاصيل التي جرت قبل النكبة والدور العربي الذي جسده جيش الإنقاذ، وكيف عمل على جمع أسلحة المتطوعين العرب والفلسطينيين بحجة أنهم لا يستطيعون العمل في ظل الفوضى وانتشار الأسلحة[23]، ثم لم يقوموا بدورهم في الدفاع عن الأرض وحماية الشعب، وبدأت ملامح هذا الجيش تتضح شيئا فشيئا حتى تبين أن هذا الجيش، لم يأت لإنقاذ فلسطين بل لإغراقها، ففي الوقت الذي كانت فيه القرى الفلسطينية تسقط واحدة تلو الأخرى في يد الصهاينة كان هذا الجيش منشغلا بحراسة بندقية سيد البلاد التي بعثها مع العريف فؤاد، ويعمل ما في وسعه ليمنع تسلح الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون «بين نارين، نار انتظارهم، ونار تمردهم على جيش قال إنه قادم لإنقاذهم»[24]، هذا الجيش الذي لا يدخل في مواجهات مع العدو حتى لو كان وجها لوجه معه، بحجة أن الأوامر لم تصله بعد، صورت رواية "زمن الخيول البيضاء" الدور المخجل لجيش الإنقاذ الذي أتى ليتفرج على فلسطين وهي تضيع من بين أيدي أصحابها «ليس معي أوامر، راح يردد تلك الجملة التي لن يسمع الفلسطينيون عبارة تتردد أكثر منها على ألسنة جنود وضباط جيش الإنقاذ فيما بعد»[25] تتداخل بعد ذلك مسارب الحرب ويضيع العريف فؤاد عن سريته، ويلتقي مع ضابط من قوات الأمم المتحدة أسقط الصهاينة طائرته وفقد رفيقيه، وخلال هذه الرحلة التي اكتشف فيها الكثير من الحقائق المريبة عن طبيعة الوضع المعقد في فلسطين، يبقى متمسكا ببندقية سيد البلاد وبالمذياع الذي كان يبث أخبارا عن انتصارات وهمية حققها العرب، لا أساس لها من الصحة فالإذاعات العربية الرسمية لا تتوانى عن بيع الأوهام للشعوب، وتصدر بشائر النصر الموعود عبر أثيرها «وكنت ترى إذاعة القاهرة المصدر الأهم للأخبار، أنها لا تحمل لك غير الأنباء السعيدة وبالطبع ما الذي يريده جندي في ساحة الحرب غير هذا النوع من الأخبار»[26]، كما كانت هذه الإذاعات ترفع معنويات الشعوب المنتظرة بالأغاني العاطفية السعيدة التي تبثها من حين لآخر «كأن تغني أم كلثوم غني لي "شوي شوي"أو يغني المطرب الشاب"فريد الأطرش"أغنيته الجديدة "الحياة حلوة للي يفهمها»[27]، عالج الكاتب قضية السلطة الرابعة ونقصد هنا الصحافة وكيف فقدت مصداقيتها، وتخلت عن دورها الأساسي المتمثل في كشف الحقائق وأصبحت أداة طيعة في يد السلطة الأولى في البلاد ووسيلة لتضليل الرأي العام، وصرفه عن الحقائق وإغراقه في الأكاذيب.

طرحت الملهاة نكبة فلسطين ضمن علائق متعددة وفي مستويات كثيرة اجتماعية، وعسكرية، وثقافية وتجلى المستوى القومي السياسي في بلورتها لعلاقة الأنظمة العربية بالقضية الفلسطينية، ودور بعضها في تثبيت أقدام الصهاينة على أرض فلسطين وتواطئها مع القوى الاستعمارية الداعمة لليهود لما أرسلت لأرض المعركة جيشا لا يمتلك الخرائط، جزء من أسلحته كان فاسدا، هذا الجيش الذي انتظر طويلا ليتلقى الأوامر بالهجوم ولم يتلقها،

وأغلب المعارك التي خاضها كانت تصرفا فرديا دفاعا عن النفس «ليلة سوداء أمضاها الجنود في مواقعهم عرق الذل يتصبب من رواحهم غزيرا، ويزداد غزارة كلما رأوا قافلة أخرى غير متوقعة تمر أمامهم، دون أن يجرؤوا على إطلاق رصاصة واحدة، كانوا يعرفون أن المستعمرات تعزز قواتها تمهيدا لمعركة ستطوح بهذه الهدنة الهشة إلى الجحيم»[28]، وفي جو من السخرية السوداء التي انبنت عليها رواية "طفل الممحاة" تتابع مهازل هذا الجيش الذي توجه لفلسطين لإسكات الجموع الغاضبة في الشوارع فقط لهذا كان شعاره على أرض المعركة «لا تتوانوا عن الرد إذا ما تعرضت سلامتكم للخطر»[29]، بلغ الاستهتار بقضية فلسطين مداه، حين نقل لنا الكاتب المعركة الوحيدة التي خاضها جيش الإنقاذ ليدافع عن نفسه، فانسحب قائد الجيش ليستمتع بالسباحة في جدول «وبكل ما فيه من رغبة الخلود للراحة ألقى بنفسه فتلقفه الماء بعذوبة أنسته ما يدور هناك»[30]، جيش الإنقاذ هو وصف لحال الجيوش العربية، لحال العرب، للأنظمة الخائنة، للأسلحة الفاسدة للأخبار الزائفة عن الانتصارات الوهمية، ف"طفل الممحاة" «هي رواية الواقع الذي سبق النكبة أي مقدماتها وحربها التي أدت إليها...نبش الذاكرة الفلسطينية الآن، وإعادة توثيق مخزون الذاكرة على الورق»[31]، وإذا كانت رواية"طفل الممحاة"عالجت أمر جيش الإنقاذ والأنظمة المتخاذلة بنوع من السخرية، فإن رواية "طيور الحذر" قاربت هذا الموضوع برمزية تجسدت في علاقة مريم الفتاة الشقراء بجندي في جيش الإنقاذ صدَّقت وعده بالزواج وانتظرته طويلا دون أن يأتي، رفضت من أجله كل فرص الزواج «–ترفضين معلم المدرسة من أجل (أمباشي)؟

– هو ليس (أمباشي) ثم لو كان يعرف مكاننا لأتى.

– والله لم أعد أفهم انتظارك له حتى الآن»[32]، تقنع مريم نفسها بالأوهام وتنتظر السراب، لأن الوحدة التي ينتمي إليها من تحب انسحبت وفرت إلى الأردن قبل أن يبدأ القتال، وهي تقنع نفسها برسائله التي ماهي إلا كلام عارٍ من الحقيقة «أهذا الكلام خائن يا عائشة؟....كل الكلام خائن يا مريم مادامت البلد ضاعت وهو لم يأت»[33]، تتماهى مريم بفلسطين التي ظلت تنتظر الخلاص على أيدي العرب دون جدوى لأن خلاصها بأيدي أبنائها، فجيش الإنقاذ الذي انتظرته مطولا لم ينقذها وإنما ورطها أكثر، وقد تجسدت فلسطين في شخصية مريم بعمق في آخر الرواية لما اكتشفت حقيقته في مركز الشرطة وتبين لها أن اسمه ليس سلمان وأنه يعمل هناك «حبستني هنا، ودقت صدرها، حبستني هنا عشرين عاما، حبستني مثلما تحبس هؤلاء الناس وأكثر، إخص تفو لم يكن اسمك هو الكذبة الوحيدة كل قدومك كان كذبة، كان علي أن أفهم ذلك من زمان»[34] وهكذا رجع "نصر الله" إلى التاريخ ليثبت أن نكبة فلسطين لم تكن وليدة اللحظة، بل هي نتاج تراكم الكثير من الأسباب، وأن الاحتلال لم يكن ليفعل ما فعل بحق الفلسطينيين لولا دعم ومساندة دول أجنبية وأخرى عربية، استطاع "نصر الله" أن يخلد ذكرى النكبة، ويبعث الحياة في تاريخها عبر بطل ممحو في زمن صنعته الأكاذيب.

1-3- المجازر الصهيونية:

استعملت المنظمات الصهيونية المسلحة أبشع الوسائل الإجرامية لتهجير الفلسطينيين من ديارهم من قتل المدنيين، إلى ارتكاب المذابح والتمثيل بالجثث وإحراقها، وتعتبر مذبحة "دير ياسين" من أشهر المذابح التي عرفها التاريخ الفلسطيني، ونالت حظا وافرا في الأعمال الأدبية، ونقلها لنا نصرالله عبر شخصية "العريف فؤاد" في رواية "طفل الممحاة" فهذا الجندي الذي ضاع عن سريته في جيش الإنقاذ، وجد نفسه يكتشف عالما مأساويا أبطاله مدنيون عزل تعرضوا للقتل والتذبيح على يد العصابات الصهيونية «ممزقة كانت الأجساد، متناثرة في كل مكان، وعلى بعد عشر خطوات منك رأيت ذراعا ملقى ذراعا لم تعرف إذا ما كان يعود لفتى أم امرأة تراجعت فزعا للوراء،

وبقيت تتراجع إلى أن وجدت نفسك وسط ساحة بيت آخر كان المشهد هو المشهد نفسه»[35] صورت الرواية كيف أن العصابات الصهيونية لم تكتف بقتل سكان القرية، وإنما قامت بالتنكيل بهم وإرهابهم حتى تزرع في قلوبهم الرعب، ولا ريب أن مجزرة "دير ياسين" ليست الأولى في تاريخ المجازر الإسرائيلية المرتكبة بحق الشعب الفلسطيني، لكنها عرفت انتشارا إعلاميا واسعا لغرض في نفس العدو فقد «كانت المجزرة الأعلى صوتا وضجيجا، لأن من ارتكبها كان يرغب بالإعلان عنها لأسباب شعبية داخلية، ولبث الهلع في نفوس العرب الباقين في قراهم، وقد حدث ذلك»[36] نجح العدو فعلا في تخويف وترهيب الفلسطينيين، ودفعهم للهروب حتى ينجوا بأنفسهم من الموت المحقق وهذا ما جسدته "رواية طيور الحذر" «مريم التي خافت عندما انتشرت المذابح وبدأ اليهود بذبح قرى، وانتفضت رعبا وحمى حين سمعت بمذبحة دير ياسين»[37]، نقلت الملهاة الفلسطينية أساليب العدو الوحشية، واعتمداه على عمليات التهجير القسرية لاقتلاع شعب بأكمله، وتثبيت شرذمة من أجناس بشرية هجينة لا يربط بينهم أي رابط روحي أو تاريخي أو ثقافي، يجمعهم ا لفكر الدموي والمصالح المشتركة التي تبرر لهم ارتكاب المجازر بدم بارد «جل اليهود المشردين في بقاع الأرض اليوم لا يمتون بأدنى صلة إلى فلسطين بل إنهم سلالات انحدرت من مختلف أهالي البلاد التي يقيمون فيها بالتزاوج»[38]، كثيرة هي المشاهد التي صورت حالة الرعب والفزع التي أحسها الفلسطيني آنذاك «كنا نسير، تلاحقنا الطائرات تلقي "الكيازين" براميل تنفجر فتحرق الشجر والحجر»[39]، وهكذا يمكننا أن نعتبر رواياتي "طفل الممحاة" "وطيور الحذر" شهاداتين حيتين عن زمن النكبة لأنهما يرويان مصائر فلسطينيين أبرياء هجروا، وذبحوا ونكل بهم دون وجه حق، ودون ذنب اقترفوه.

1-4- ذاكرة اللجوء والشتات:

إن النكبة كارثة حقيقية حلت بالشعب الفلسطيني، مزقت البلاد وشردت العباد ورمت بهم في متاهات الضياع، وقد تتبعت رواية "طيور الحذر" اللاجئ في رحلة العذاب خارج الديار، فقد كانوا هاربين من الموت المحقق الذي يترصدهم في وطنهم بعد أن، أصبحت العصابات الصهيونية تصول وتجول في فلسطين دون رقيب أو حسيب «كان التعب قد هدهم تماما بعد مسيرة طويلة على الأقدام، من قريتهم إلى غزة إلى الجليل إلى حين هم الآن، ولم تكن الهجرة أقل من رحى عملاقة»[40]، هام الفلسطيني على وجهه بعد أن فارق أرضه فلم يجد غير الكهوف والمغارات ليهرب إليها، لكنه لم يهنأ بها لأن سكانها الأصليين، من ثعالب وذئاب كانوا لهم بالمرصاد «أطلقت الثعالب عواءها في الليلة الأولى...همست عائشة: أخشى أن تهاجمنا حين ننام..ألم نأخذ بيتها..لن تتركنا ننام ما دمنا نائمين في مكانها»[41]، صوَّر "نصر الله" الفلسطيني وهو يكابد الأمرين لتأمين المأوى وقوت اليوم لعياله فلا يجد أمامه إلا اللجوء للمغارات، وامتهان الأعمال الشاقة، كتكسير الصخور فيعرض نفسه لخطر الموت «الكثير من رجال الجبل كانوا يعملون هناك في الكسارات، يحطمون الصخور، يفجرونها ببارودهم، أشغال شاقة مؤبدة، يرزحون تحت ساعاتها الطويلة بصبر القهر»[42]، ثم تبدأ معاناة جديدة في مخيمات البؤس في الأردن أين تضيق الحياة على أصحابها ويمتد الشقاء ليلقي بظلاله على يوميات هؤلاء اللاجئين، ففي مخيم الوحدات بالأردن تستاء الأوضاع كثيرا وتزداد سوءا في الشتاء، لكأن الطبيعة تآمرت عليهم أيضا «والشتاء يتقدم يتطاول بين البيوت صقيعا.ينتشر كل ما لديهم من ملابس فوق أكتافهم، كأنهم يرتدون خزاناتهم.فتح الباب تبديد لذلك الدفء الذي جمعته الأنفاس»[43]، تسلل نصر الله إلى عمق الحياة في المخيم ورصد أدق التفاصيل التي تشكل يوميات هؤلاء اللاجئين، فكانت بذلك رواية "طيور الحذر" رواية شخصية للكاتب "إبراهيم نصر الله" لأنه من لاجئي 1948، الذين هجروا إلى خارج فلسطين واستقروا بمخيم الوحدات بالأردن لذلك فقد عاش حياة اللجوء، واكتوى بنارها فلم

يترك شاردة ولا واردة فيما يخص حياة المخيمات إلا وأتى على ذكرها «الشتاء الأول لا ينسى.. كأنه شتاء العالم الأول، معلبات الإسمنت تنتشر على مسافات لا يحدها نظر، ولا يدركها خيال، لعبة التكرار في الغرف الصغيرة، في المساحات الضيقة، الأرض الطينية التي ستتعب الأقدام طويلا قبل أن تشق دروبها فيها»[43].

وكثيرا ما كانت تنشب الخلافات والخصومات عندما توزع وكالة الغوث الماء أو الطحين لأن ما يوزعونه لا يلبي حاجة سكان المخيم، الذين يقفون في طوابير طويلة لأخذ المؤن التي لاتسمن ولا تغني من جوع «في المبنى المنخفض، المبنى الموازي طويلا كان الطابور، نساء رجال فتيات من كل الأعمار، طابور طويل من الانتظار المتطلع للطحين وزيت الصويا والعدس والصابون كريه الرائحة»[45]، وفي الجهة المقابلة من الشارع توجد دكاكين صغيرة تشتري المؤن من اللاجئين الذين يفضلون الجوع ليحصلوا على بعض الدراهم[46]، وهكذا ارتبط اللجوء في الرواية بالمخيم الذي كانت شخوصه تعيش الفقر والحاجة، وترزح تحت وطأة الفقر.

وقد اتسعت معاناة الفلسطينيين عمقا بمواقف السلطة الأردنية، التي تجسدت في الرواية بوقوفها ضد المقاومة الفلسطينية، فسيطرت حالة من الخوف والهلع على جو الرواية، جراء تعسف رجال الأمن والمخابرات في ملاحقة كل من يلتحق بصفوف الفدائيين «وفي الأزقة انتشر خوف، وازدادت حدة السمع لدى الحيطان، أن تتحدث في أي شيء فهذا سياسة، وأن يكون لك أحد في السجن فهذا سياسة»[47]، أما من يثبت التحاقه بالفدائيين أو دعمه للمقاومة الفلسطينية، فيزج به في السجن وهناك يتعرض للتعذيب والتنكيل من طرف رجال الشرطة لينتزعوا منه الاعترافات[48] مثلما حدث مع علي زوج عائشة في رواية "طيور الحذر"، ولم تكتف السلطات الأردنية باستهداف المقاومين فقط، بل إنها تلحق الأذى بأزواجهم وأبنائهم وكل من تربطه علاقة بهم «ورجال لا يرتدون الزي العسكري، على خصورهم مسدسات، وفي نظراتهم غضب..هبط ثلاثة من العربة شد أحدهم عائشة من شعرها، شدوا الصغير دفعوا الجميع إلى الحوش»[49] تؤكد هذه التصرفات القمعية تماهي بعض الأنظمة العربية بالاستعمار في ممارساتها غير الإنسانية ضد أبناء فلسطين، لكن القمع يأخذ بعداً مأساويا حين يصدر من عربي مثلك، وهكذا واجه الفلسطيني في "ملهاة إبراهيم نصر الله" حصارين حصار اليهود له داخل الوطن وخارجه، ومنعه من الدخول إلى حدود فلسطين، وحصار بعض الأنظمة العربية التي هاجر إليها فقيدت حريته ومنعته من ممارسة حقه الطبيعي في الدفاع عن وطنه فهل أصبحت الوطنية جريمة؟ في ظل أنظمة تزرع الخوف والهلع وسط المخيمات، بعمليات الترقب والتصنت والمداهمة والتفتيش.

2-النكبة والهويـــة:

رجع "نصر الله" إلى التاريخ وحفر عميقا في الذاكرة الجماعية، ليعيد بناء هوية فلسطينية أصيلة صافية من كل ما يمكن أن يكون علق بها من شوائب أثناء اللجوء والشتات، الذي عاشه الفلسطيني، فقد سعى "نصر الله" في ملهاته الفلسطينية إلى بناء هوية وطنية لمواجهة السياسة الصهيونية الهادفة، إلى محو وطمس معالم الوطن فكان الراوي في كل روايات الملهاة «إذ ينقل المحكي المسموع ويبني نمط انتظامه الفوضوي، إنما يأتي بهذه الذاكرة نفسها في حقيقتها، وفي طابعها إلى الكتابة، بغية إنقاذها مما تغرق فيه في واقعها، ويهدد بقاءها حية تحكي، وذلك عن طريق المجيء بها إلى روائي يتماهى بها، بغية أن تكون لها الحياة»[50]، الذاكرة الجماعية هي حافظة تاريخ الأمة لذا تلجأ إليها الشعوب التي تحس أن كيانها في خطر، وتفعلها بشكل إيجابي لتحصين هويتها مثلما فعَّلها "نصر الله" فقد ارتحل بعيدا في تاريخ فلسطين، وبحث عن أسس تشكل الهوية الفلسطينية.

2-1- فلسطين أرض الديانات:

فلسطين أرض الرسالات السماوية، ومهد الحضارات الإنسانية، تتعانق فوق أرضها ثلاثة أديان (الإسلام، والمسيحية، واليهودية)، يمتزج فيها صوت الآذان بترانيم قرع الأجراس حيث تتجاور الكنيسة والمسجد، وقد عمل "نصرالله" في ملهاته على ترسيخ هذه القيمة باعتبار التعدد الديني عنصرا من عناصر الهوية الفلسطينية، واعتمد على الذاكرة ليؤكد أن فلسطين أرض التسامح، فرجع إلى عهد الأتراك في "محكي الريح" الجزء الأول من رواية "زمن الخيول البيضاء"، وبيَّن كيف كان المسلمون وهم الأغلبية في المجتمع، يتعاملون بشكل راقٍ مع أصحاب الديانات الأخرى وقد تجسد الأمر جليا حين هب سكان قرية الهادية لبناء الدير، وشغل الناس فيما بعد الصليب الكبير المصنوع من خشب الزيتون الذي رفع عاليا فوق بوابته، ورغم أن إمام مسجد القرية "الشيخ حسني" لم يعجبه الأمر إلا أن زعيمهم "الحاج محمود" عارضه قائلا «أن كنا فوق هذه الأرض أو كنا تحتها، فالمسافة التي تفصلنا عن الله جل جلاله واحدة، ثم صمت وقال: لن نختلف على شيء يتعلق بالله نفسه، ويعرفه أكثر منا جميعا: هم يقولون صلب والقرآن يقول ((وما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم)) صدق الله العظيم ولذلك فهناك شيء واحد مؤكد بالنسبة للجميع وهو أن هناك شخصا قد تم صلبه»[51]، يحمل هذا الحوار خطابا متسامحا يبحث عن نقاط التشابه بين الديانتين، ويتجاوز بذكاء الاختلافات التي يمكن أن يسببها تواجد التقاء ديانتين مختلفتين على أرض واحدة، لكن حين يحاول رجال الدين المسيح أن ينصروا الأطفال لا يقبل أهل القرية بذلك ويكتفون بتعليم أبنائهم القراءة والكتابة لا غير، أما العائلات المسيحية فلها الحق في حضور دروس الدين[52]، إنها قمة التحضر واحتواء الآخر التي تميز بها سكان الهادية، فرغم تمسكهم بالدين الإسلامي إلا أنهم تقبلوا الآخر ودينه المختلف «ما تدعوني إليه أنا مؤمن به أصلا، قال الحاج ولعل عدد الأنبياء الذين أؤمن بهم أكثر بكثير من أولئك الذين تؤمن بهم كمسيحي، وكما تلاحظ، نحن نقسم بحياة ستنا مريم وسيدنا عيسى وموسى، كما نقسم بحياة محمد، ولذلك أؤكد لك مع أنك تعرف ذلك جيدا أن ليس لدينا خصومة مع أي نبي، ولا مع أي إنسان، مادمنا نلتقي في النهاية معا على الإيمان باءله واحد»[53]، تجسد حوار الحضارت في أرقي صوره فهذا المسلم متمسك بدينه ويدافع عنه، بعيدا عن التعصب، وهكذا أسس نصر الله خطابا دينيا أساسه المحبة واحترام الآخر واحتواؤه مهما كانت ديانته أو مذهبه، وهذا هو أنجع السبل للحفاظ على الهوية وصون الذات العربية من الانشقاقات التي تهدد وحدتها الوطنية، وهكذا رجع "نصرالله" إلى الذاكرة وبنى رؤيته لتعدد الديانات على أساس متين قوامه «الانفتاح واحترام الخصوصيات والاختلاف والتخفيف من التبشير العقائدي والأدلجة والمصلحية»[54] لم تنته علاقة المسلمين بأصحاب الديانات الأخرى في عهد العثمانيين بل استمرت في كل العصور، وقد أبرز نصر الله في "محكي التراب" الجزء الثاني من رواية "زمن الخيول البيضاء" كيف كان المسيحيون يقفون جنبا إلى جنب مع المسلمين في مقاومة البريطانيين واليهود «حين اقتربنا من ذلك المكان رأينا علم فلسطين، الذي أضافت إليه الثورة وسط مثلثه هلالا يحتضن صليبا فتبين لنا أن هناك أكثر من خمسمائة مسلح من الثوار ونجدات أهل القرى»[55]، ومن الشخصيات المقاومة التي كان لها دورها الفعال في معارك"الحاج خالد "إيليا" الذي يمثل الفئة المسيحية وما قدمته من تضحيات في مقاومة البريطانيين واليهود[56]، بين "نصر الله"أن فلسطين وطن يتسع لجميع الأطياف دون استثناء فقد كان يعيش فيه المسلمون والمسيحيون واليهود جنبا إلى جنب دون أن يؤذي واحدا منهم الآخر «كان ناجي قد استقر في بيت الحاج أبو سليم (والد أمل) في المنتفيوري بيت كبير يسكن الحاج أبو سليم جانبا منه وتستأجر الجانب الآخر عائلة مسيحية وأخرى يهودية»[57] فهؤلاء السكان يسكنون بيتا

واحدا رغم أن ديانتهم مختلفة، لأن ما يجمعهم أكثر بكثير مما يفرقهم، يجمعهم تاريخهم المشترك، وعاداتهم وتقاليدهم.

أبرز "نصر الله" أن الفلسطينيين ليس لديهم مشكلة مع اليهود، فقد عاشوا معهم منذ آلاف السنين واختلاف الدين لم يقف عائقا أمام انسجامهم، لكن مشكلتهم الحقيقية مع أولئك الغزاة المحتلين، الذين اقتلعوهم من جذورهم وفرقوهم في أنحاء الأرض، لهذا كان المقاومون ينصبون الكمائن للقوافل اليهودية وعندما يتبين لهم أن من فيها هم جيرانهم من اليهود يأخذون السلاح ويتركونهم لحالهم «كانوا يريدون السلاح لا أكثر، وفي مرات كثيرة كانوا يطلقون سراح أولئك اليهود الذين يعرفونهم، اليهود الذين عاشوا معهم دون أي مشاكل منذ زمن طويل بين حين وآخر كان يقع واحدا من هؤلاء أسيرا – نحن لا نحب المشاكل:يقول هؤلاء، ولكن اليهود الذين جاؤوا من الخارج يجبروننا على العمل معهم فيطلقون سراحهم»[58]، نبش "نصر الله" في الذاكرة الجماعية الفلسطينية مطولا، ليثبت أن المشكلة في فلسطين لا علاقة لها بالدين، وأن هؤلاء المحتلين استغلوا اليهودية في إدعاءاتهم الباطلة ليحققوا مشاريعهم الاستيطانية.

2-2 -الموروث الشعبي:

لا يمكن أن يكتمل بناء الهوية الفلسطينية في غياب الموروث الشعبي، لهذا اشتغل الروائي بشكل مكثف على الموروث الشعبي، بأشكاله المتنوعة في الملهاة الفلسطينية، واستثماره بشكل فعَّال، فبعث فيه الحياة«لأن الأمر يتعلق بتراثنا نحن، فهو جزء من (أخرجناه) عن ذواتنا لا لنلقي به هناك بعيدا عنا، لا لنتفرج فيه تفرج الانتروبولوجي في منشآته الحضارية، والبنيوية، ولا لنتأمله تأمل الفيلسوف بصروحه الفكرية المجردة ...بل فصلناه عنا من أجل أن يعيده إلينا في صورة جديدة، وبعلاقات جديدة»[59]، وهذا ما تمكن منه صاحب الملهاة الفلسطينية حين جعل شخصيات رواياته تقول الأمثال وتغني وترقص، وتزور الأولياء الصالحين، وتمارس عادات وتقاليد فلسطينية أصيلة، فطبعت بطابع محلي خالص.

عمد "نصر الله" إلى استلهام هذا الموروث في بناء الرواية، فاستثمر مرجعياته المعرفية في خدمة النص، ووظفه توظيفا لا يتجاهل روح التاريخ وأبعاد التجربة الإنسانية، بما تمتلكه من عمق وفعالية للتعبير عن رؤاه المختلفة حول قضية فلسطين بكل تفاصيلها وحيثياتها «لأن النظام اللساني :يمثل المصب الفعلي لتراكمات ثقافية قد كثفت عطاءها عبر قرون وخلال تجربة لغوية تصل عمق الماضي وأغوار المستقبل ...فمن البديهي أن تثير كل علامة لغوية حيزا خاصا بها يحمل هالة من المعاني»[60]، وقد فعَّل نصر الله الموروث الشعبي لإحياء الذاكرة، وتثبيت الهوية الفلسطينية والحفاظ على الخصوصية المحلية التي تميز هذا الشعب، وتحميه من محاولات الطمس التي ينتهجها العدو الإسرائيلي ضد كل ماهو فلسطيني.

2-3- المعتقدات الشعبية:

لدى كل مجتمع من المجتمعات من الأفكار التي يؤمن بها، وتتوارثها الأجيال عن بعضها البعض، لأنها تترسخ في الوعي الجماعي وتصبح مرجعيته الثابتة فالمعتقدات هي «تفكير اعتقادي لجماعة قد تكون أقلية أو كثرة تعيش في مجتمع واحد أو تمتد جغرافيته شساعة»[61]، بعث الكاتب هذه المعتقدات من جديد لما نسبها لشخصيات الرواية التي كانت تمارسها في حياتها اليومية مثلما كانت عليه شخصية "أم الفار"التي كان أولادها يموتون مباشرة بعد ولادتهم، فنصحها أحدهم بأن تضع سن فار على رأس رضيعها الذي تلده حتى لا يموت «فأعلنت أنها بحاجة إلى سن فار قالت لأولاد الهادية بأنها خصصت جائزة محترمة لمن يأتيها بالفار الأكبر

..انتقت الأضخم منها وخلعت سنه بيدها وضعته على رأس وليدها»[62]، ولأنها كانت شديدة المراقبة له فإنها تخاف عليه من نسمة الهواء، وإذا ما أصابه مكروه فإنها تعتقد بأن عينا أصابته فتسارع بإحضار لوازم طرد **الحسد**«فتحضر جمرات وتضعها في وعاء وتقوم برش (الشبة) عليها وهي تتلو رقية، وعندما تذوب الشبة تسم جبهة الصغير برمادها»[63] كما كانت تتردد على أضرحة الأولياء الصالحين وتذبح الخرفان كما نذرت في يوم من الأيام)[64].

وهناك من يتردد على المشايخ إذا تعسر عليه أمر من الأمور، ولم يجد له حلا مثلما فعلت "سمية" زوجة "الحاج خالد" في رواية" زمن الخيول البيضاء"عندما صعب عليها الإصلاح بين ابنها "محمود" وخطيبته "عفاف"وخافت أن تطير العروس من يدها فقررت«استخدام قوى الغيب لحل المشكلة..التقت بأحد المشايخ الذي أعد لها حجابا أكد أنه سيحل المشكلة من أصولها»[65].

2-4- العادات والتقاليد:

العادات هي كل ما اعتدنا على فعله، وتكريره مرارا في المناسبات حتى يصبح تقليدا، نتواتره جيلا بعد آخر، وقد استحضر "نصر الله" في ملهاته الكثير من العادات والتقاليد كعادات الزواج، والخطبة في القرى الفلسطينية، فالشاب مثلا عندما يود إعلان رغبته في الزواج، لا يصرح بذلك وإنما يلجأ لكسر الصُّحون حتى يفهم من بالبيت رغبته في إتمام نصف دينه، مثلما كان عليه الأمر مع "خالد"ابن منيرة في رواية"زمن الخيول البيضاء" فمبجرد «عودته للبيت أمسك بأحد الصحُّون وكسره ..هب الحاج محمود راكضا، وقد أدرك أن الشوق لامرأة قد ضج في عروق ولده كانت تلك واحدة من العادات المكلفة المؤدبة التي يعلن فيها الشاب في كثير من قرى هذه المنطقة، أنهم لم يعودوا قادرين على احتمال العزوبية»[66] تبرز هذه العادة طبيعة المجتمعات الشرقية في القديم أين كان التصريح بالمشاعر من الأمور المحظورة، لهذا يعبرون عن رغباتهم بالتلميح استحياءً من ذويهم، أما بالنسبة للبدو فإن من يرغب بخطبة فتاة «يحمل راية بيضاء ويدور بها بين خيام قومه وخيام القبائل الصديقة القريبة دليلا على أنه يدعوهم لخطبتها»[67]، وهكذا أفصحت هذه العادات الشعبية عن البنية الفكرية للمجتمع الفلسطيني آنذاك، الذي كان يخفي مشاعره ولا يبدي رغباته مباشرة إنما يترجمها بطريقة رمزية يفهمها المحيطون به، أما حين يقام العرس فإن هناك عادات لا يمكن تجاوزها «بعد الغداء تقدم العريس أمام الحمدانية التي تم تزيينها، وبعد قليل أطلت العروس فوق جمل لا يظهر منها شيء راحوا يدورون بهما من شارع لشارع وسط الأغاني، وقد وضع (جهاز) العروس على طبق من القش حيث تتناوب النساء على حمله فوق رؤوسهن وهن يرقصن»[68] وإذا كان للعرس تقاليد، فإن للموت طقوسه الخاصة التي تجسدت في رواية" طيور الحذر"لما مات "أبو خليل" قام صديقه"الزوبعة" بتلبيس القبر وهذه المسالة تعني أمرا واحدا فقط «أن من يلبس القبر يطلب زوجة الميت من أهلها ولم يكن لهم إلا أن يوافقوا، فيقول أحد إخوة الأرملة مرحبا بك»[69]، كما حفلت الرواية بالكثير من الطقوس التي مارسها الفلسطينيون قديما مثل "خميس البنات"وهو طقس سنوي تقوم به البنات لزيادة فرصهن في الزواج على شاطئ البحيرة، حيث يقمن بغسل شعرهن بالماء المنجم[70]، وهكذا أحيا "نصر الله"الكثير من العادات والتقاليد التي مارسها القدماء، ورجع للذاكرة ليثبت أن الهوية فلسطينية باقية ولن تتأثر بما تعرض له الفلسطينيون من اقتلاع ولجوء.

خاتمة: نتائج الدّراسة

حملت العودة للماضي في الملهاة الفلسطينية إرادة قوية لإنقاذ الذاكرة المهددة بالضياع، ومقاومة النسيان الذي يلاحق الفرد الفلسطيني ويفصله عن أرضه وهويته ووجوده، فالكتابة كما نعلم حماية للذاكرة وترسيخ للتاريخ، وهكذا حفر "إبراهيم نصر الله" في أعماق الذاكرة الجماعية الفلسطينية حتى يعيد إلى الواجهة، جرائم الاستعمار الصهيوني وما ارتكبه من مجازر، عندما أخذ أرض فلسطين وشتت أهلها، فرصد "نصر الله" في روايتيه *طفل الممحاة* و*طيور الحذر* النكبة وما سبقها من أحداث، وانعكاساتها الوخيمة على الشعب الفلسطيني، ليؤكد أن الذاكرة الجماعية للشعب الفلسطيني لازالت حية صامدة في وجه كل محاولات التزييف والمحو التي ينتهجها الاحتلال، وليثبت أن ما حدث مع الشعب الفلسطيني جريمة لا تغتفر، لا تسقط بالتقادم وستبقى خالدة في التاريخ الفلسطيني.

الإحالات والهوامش:

1- جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، ترجمة صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ط2، 1986، ص 11.

2- محمد القاضي، الرواية والتاريخ، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة، مصر، المجلد16، عدد4، ربيع1998، ص 42.

3- رمان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 1996، ص 51.

4- محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2002، ص 104.

5- جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، المرجع نفسه، ص 7.

6- قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2001، ص 376.

7- حلمي محمد القاعود، نجيب محفوظ ورواية الاستدعاء التاريخي، عالم الفكر، وزارة الإعلام الكويت، مجلد21، عدد2، ص 137.

8- إدوارد سعيد، الاختلاق، الذاكرة والمكان، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، عدد103، صيف2000، ص 27.

9- يمنى العيد، فن الرواية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص 106.

10- عبد العليم محمد، القضية الفلسطينية في مفترق الطرق، مركز المحروسة مصر، ط1، 2010، ص 08.

11- يمنى العيد، الرواية العربية المتخيل وبنيته الفنية، دار الفارابي، لبنان، ط1، 2011، ص 111.

12- شوقي بزيع، رواية الحرية ونشيد الحب، دار الآداب لبنان، عدد1، كانون الثاني 1993، السنة 41، ص 84.

13- يوسف يوسف، التزوير في الأدب اليهودي، دار القلم، سوريا، ط1، 2000، ص 15.

14- ابن منظور، لسان العرب، المجلد1، دار صادر، لبنان، مادة نكب، ص (773-772).

15- صالح مسعود أبو بصير، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، دار الفتح لبنان، ط4، 1971، ص 433.

16- حسن جمعة، تجليات النكبة والمقاومة في الفكر والأدب العربي المعاصر، دار رسلان، سوريا، 2003، ص 11.

17- حسن جمعة، المرجع نفسه، ص 64.

18- إبراهيم نصرالله، طفل الممحاة، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط3، 2012، ص 118.

19- إبراهيم نصر الله، طفل الممحاة، ص 132.

20- مصلح خضر الجبوري، جذور الاستبداد والربيع العربي، الأكاديميون، الأردن، ط1، 2014، ص 10.

21- إبراهيم نصر الله، طفل الممحاة، ص 118.

22- المصدر نفسه، ص 189.

23- المصدر نفسه، ص 200.

24- المصدر نفسه، ص 203.

25- إبراهيم نصر الله، زمن الخيول البيضاء، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، (الجزائر-لبنان) ط2، 2008، ص 469.

26- إبراهيم نصر الله، طفل الممحاة، ص (238-239).

27- المصدر نفسه، ص 239.

28– المصدر نفسه، ص 250.

29– المصدر نفسه، ص، ن.

30– المصدر نفسه، ص 251.

31– أحمد أبو مطر وآخرون، أفق التحولات في الرواية العربية، مؤسسة خالد شومان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (الأردن–لبنان)، ص (35–36).

32– إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط5، 2012، ص 56.

33– المصدر نفسه، ص ن.

34– المصدر نفسه، ص ن.

35– إبراهيم نصر الله، طفل الممحاة، ص 235.

36– ياسر علي، المجازر الفلسطينية بحق الشعب الفلسطيني، مركز الزيتونة للدراسات، لبنان، ط1، 2009، ص 37.

37– المصدر نفسه، ص 165.

38– جاك تني، الأخطبوط الصهيوني وخيوط المؤامرة لابتلاع فلسطين، ترجمة هشام عواض، دار الفضيلة، مصر، 2001، ص 31.

39– إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص 289.

40– المصدر نفسه، ص 28.

41– المصدر نفسه، ص 289.

42– المصدر نفسه، ص (32–33).

43– المصدر نفسه، ص (79–80).

44– المصدر نفسه، ص 79.

45– المصدر نفسه، ص 207.

46– المصدر نفسه، ص 209.

47– المصدر نفسه، ص 169.

48– المصدر نفسه، ص 167.

49– المصدر نفسه، ص 159.

50– يمنى العيد، دلالة النمط السردي في الخطاب الروائي، تحليل لرواية غاندي الصغير، ملتقى السيميائية والنص الأدبي، 12، 17، ماي، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، ص 240.

51– إبراهيم نصر الله، زمن الخيول البيضاء، ص 186.

52– المصدر نفسه، ص 43.

53– المصدر نفسه، ص 33.

54– عبد الله أبو هيف، صورة الآخر والحوار بين الحضارات في الرواية العربية، مجلة جامعة دمشق، المجلد24، عدد، 3، 4، 2008، ص 110.

55– إبراهيم نصر الله، زمن الخيول البيضاء، ص 314.

56– المصدر نفسه، ص 452.

57– المصدر نفسه، ص 477.

58– المصدر نفسه، ص ن.

59– محمد عابد الجابري، التراث والحداثة دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 1991، ص 33.

60– صلاح الدين بوجاه، مقالة في الروائية، المؤسسة الجامعية، لبنان، ط1، 1994، ص 132.

61– بشير بهادي، جمالية الموروث الشعبي في الرواية الجزائرية(قراءة في رواية تنزروفت بحثا عن الظل لعبد القادر ضيف الله)، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، معهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي تامنغاست، الجزائر، العدد11، فبراير2017، ص 37.

62- إبراهيم نصر الله، زمن الخيول البيضاء، ص 210.

63- المصدر نفسه، ص 211.

64- المصدر نفسه، ص ن.

65- المصدر نفسه، ص 245.

66- المصدر نفسه، ص 13.

67- إبراهيم نصر الله، المصدر نفسه، ص 85.

68- إبراهيم نصر الله، المصدر نفسه، ص 256.

69- إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص 41.

70- إبراهيم نصر الله، قناديل ملك الجليل، ص 112.